استهلال

في أحد الأوقات وبينما أتجول في الطرقات كعادتي، عارضت امرأة عجوزًا، لكن ليس للحد الذي يجعلها طاعنة في العمر. كانت السيدة تواجه مشكلة ما، ويبدو أنني مددت لها يد العون رغم أنني لا أتذكر فعلاً صنيعي لها. واصلنا السير حتى واجهنا منزلًا كبيرًا ذا جدران بيضاء، أشارت إلى أنه بيتها.

لم يكن لدي مسكن في ذلك الوقت، فسألته إن كان يمكنني المبيت عندها ليلة واحدة، لكنها لم تبد لي قبولًا أو رفضًا، بل فاجأتني بتحذير من دخول هذا المنزل قائلة أنه قد لا يكون من مصلحتي دخوله. سألتها إن كنت أستطيع ذلك، فقالت أن الخيار لي إن كان هذا ما أريده. حين دخلنا.. كان المكان معتمًا، ولم تشعل السيدة الإنارة لتبديد تلك الظلمة. شعرت بأنها لا تريد أحدًا من القاطنين في المنزل أن يراني أو أن يشعر بوجودي، بل كان قلقها من هذا الأمر واضحًا. جهزت لي سريرتي وغطت في نوم عميق. عندما استيقظت سمعت همسًا عند باب غرفتي، صوت فتاة تحدث السيدة عن سوء عاقبة جلبها لي للمنزل، فهمت من كلامها أن هناك عددًا كبيرًا من السكان قد لا تسرني معرفتهم والأفضل ألا يروني. وبينما أنا كذلك أرى مخلوقًا جليديًا يسير في ردهات البيت، في الواقع ما أعنيه بذلك هو حيوان يعيش في تلك المناطق الجليدية في أحد قطبي الكرة الأرضية: الشمالي أو الجنوبي.. لا أعلم أيهما تحديدًا. جلست فاغر الفم متعجبًا كيف لحيوان مثل هذا أن يعيش في منطقة صحراوية وأن يقطن بيتًا كبيوت البشر. ما كان أفزعني عندما علمت بوجود المزيد من هذه المخلوقات الغريبة، بل غيرها من العجائب الأخرى والتي لأصارعها بالأمر، بدأت تثير قلقي. ففكرة وجود حيوانات أتت من أماكن لم أرها قط تتجول في الأروقة فكرة مرعبة بحد ذاتها. دفعني خوفي لأن أستكشف ذلك الغموض، فإذا زال الغموض حول شيء غالبًا ما سيذهب جزع الشخص منه. خرجت من غرفتي، فإذا بي أقابل أناسي أتوني فردًا، فزوجًا، فأفواجًا. إن العدد كبير وهم يجتمعون حولي، بمختلف اللباس والهيئة، وأشكالهم المختلفة. تتملك وجوههم نظرة عابسة ومتهمكة، علمت فورًا أنهم أولئك الذين كانت تتحدث عنهم الفتاة. سألتني أحدهم بصوت عدواني عن سبب وجودي، وعضًا عن إظهار خوفي أو جزعي بالاعتذار والخروج من هذا المنزل الغريب، أردت أن أكون منهم وأبقى في هذا المكان.

إن تلك الساعة ومقدار ما كان يملؤني من فضول ورغبة في معرفة سر ذلك البيت المُلغز دفعني إلى قول ما قلته أمامهم. ولحسن حظي لم تكن أسوأ الاحتمالات التي وضعتها بالحسبان هي ما حدث حينها، بل أظنني قد كسبت إعجابهم. لكن ما كان ذلك ليحدث لولا مغامراتي التي خضتها قبل ذلك، والتي بالطبع جعلت من القصة التي حكيتها لهم تحجز لي مقعدًا على طاولة واحدة نتناول عليها الطعام سوية.

الفصل الأول

كنت جالسًا على الرصيف أتابع المارة تحت شمس العصر البرتقالية. يسرح ذهني قليلاً، لا أعلم إلى أين أذهب تحديداً: ربما إلى البحر أو أستكشف مزيداً من أزقة البلد، أو ربما سأمكث مكاني مستمتعاً بأشعة الشمس. لكن شعوراً ملحاً يدفعني لأعود إلى المنزل، أريد الاستلقاء على سريري المحاط بالأوراق المبعثرة، والكتب الملقاة في كل مكان. دائماً ما توبخني أمي حيال تلك الفوضى، لكنها الشيء الوحيد الذي يشعرني بأني في المنزل.

بيتنا ممل، أبي يقضي أغلب وقته على هاتفه، أمي تفعل ذلك أيضاً، صوت التلفاز الذي يشاهده أخي الأصغر لا ينقطع طوال اليوم. يندر أن تمر ساعة لا أود قتل نفسي فيها، لكنني حين أقرأ لا أعود أشعر بالزمن. أصبحت أذهب إلى الخارج أكثر عندما بلغت الثالثة عشر الشهر الماضي، لكن لأوقات تحددها أمي وبشرط ألا أذهب بعيداً عن المنزل، ما عدا الأوقات التي أتسلل فيها دون علمها مثل الآن. لا أعلم لماذا يخوفنا الكبار من الخروج والذهاب لأماكن بعيدة، إنني أستمتع بذلك في الحقيقة. أبي دائماً ما يقول: أن كل ممنوع مرغوب. أظن أنه محق في هذا النقطة.

عندما أريد التنقل فعادة أستعمل دراجتي الهوائية، لكن وبما إنني عائد من المدينة التاريخية فثلاثة رياللات ونصف للحافلة، والتي أقتطعها من مصروفي بالمناسبة، ستوفر عناء ساعات بالدراجة. الانتظار أيضاً ممل، إنه يذكرني بالبيت.

أخيراً وصلت الحافلة التي ستقلني للمنزل الذي يبعد عشرين دقيقة، مما يعني أنني سأصل قبل غروب الشمس. عندما أخرج فإن عامل الوقت يغدو مهماً، علي وضع كل شيء في الحسبان: موعد وصول الحافلة، المسافة التي سأقطعها مشياً، مواقيت الصلاة، المدة الزمنية التي سأمنحها للمكان الذي أود زيارته. في الواقع هناك الكثير من الأماكن التي أود زيارتها لكن الوقت يشكل عائقاً، أود لو يمكنني حينها أن أوقف عقارب الساعة عن الدوران.

ما أن أدخل البيت حتى أحبي أمي، إنني أحبها كثيراً، لكنها لا تنفك تذكرني بأنه ينبغي علي الاهتمام بفروسي المنزلية عوضاً عن قضاء الوقت بالخارج. "مستقبلك أهم" هكذا تقول لي. الناس تتكلم عن المستقبل كثيراً: في المدرسة، في المنزل، على شاشات التلفاز. وأكثر سؤال ساذج يتم سؤالي إياه باستمرار: ماذا تريد أن تصبح عندما تكبر؟ لا أعلم كيف يمكن لأحدهم أن يكون متأكداً مما يريد أن يصبح في المستقبل، لكنني أود لو أقول أنني سأصبح رحالاً، لكنني أعلم أنها ليست الإجابة التي ينتظرونها. لكن لا يهمني ذلك كثيراً، فقد قررت أن أمارس هوايتي في الترحال هنا في شوارع جدة عوضاً أن أنتظر المستقبل الذي يتحدثون عنه. في اليوم التالي وأنا عائد من المدرسة، والجو ساخن مما يجعلني أشعر بأني أدوب فيه مثل قطعة الشوكولا في فمي، كنت أتحدث أنا وصديقي فارس عن خطط اليوم.

يسألني:

- علي، هل ما زلت ذاهباً إلى البحر؟

أجيب:

- نعم.

- ما الذي ستفعله هناك؟

- لا شيء، أود فقط الذهاب هناك.

يرد علي بلهجة ساخرة:

- يبدو أنه ليس لديك شيء لتفعله.

- ليس فعلاً.

ثم أسأله:

- ماذا عنك كيف ستقضي يومك؟

- لعب كرة القدم في الحارة.
- فأرد:
- أمي تحسب أنني أفعل ذلك.

الفصل الثاني

"أنني إنسان حساس، حسودي، سافل، منحط، شرير، انتهازيّ وربما مخبول قليلاً..".
كنت أقرأ هذا السطر من أحد روايات دوستويفسكي عندما صدح صوت أذان العصر لأترك الكتاب وأذهب..
سأصلي العصر في المسجد ثم اتجه نحو وجهتي.
في هذه الساعة من اليوم المدينة غاصة بسيارات داخلها أناس متجهمون يريدون العودة إلى المنزل، أما الحافلة تسير كأنها فرد ضخم يسير بين تلك الحشود البطيئة، ومن نافذتها الواسعة أطلع كل شيء بالخارج. مما تعلمته من خلال قضائي الوقت خارجاً هو استمتاعني باللحظات ومحاولة عيشها قدر الإمكان، أحب تأمل الأشياء عوضاً عن تجاهلها. بعض الأجسام المصمتة والتي من الوهلة الأولى قد لا تعبر عن شيء أجدها ممتعة ومضحكة عندما أمعن النظر فيها.. الكراسي الخاوية المتقابلة مثلاً: أتساءل ماذا قد تتحدث مع بعضها: هل سيسأل أحدهم الآخر من أي خشب صنع أو من أي شجرة ينحدر، هل من القيقب، أم شجر الجوز، أم الصنوبر؟ لا أظن ذلك، فهذا ما نفعله نحن، لكن بالنسبة للكراسي أتوقع أن تسأل بعضها: من قد جلس عليها؟ ماهي القصص التي حكوها؟ وماذا إن تم استعمالها لغير الجلوس كأن يقف عليها أحدهم أو تترك مهملّة تحمل الأغراض كأنها طاولة، يبدو أمراً مزعجاً للكراسي بلا شك.
يبدو أن علي النزول هنا، سأذهب لكي أعلم قائد الحافلة بذلك. لا توجد لدينا محطات توقف للباصات، تستطيع أن تقف في أي مكان ما دمت قد أعلمت قائد الحافلة.
لأن الباص لا يمر بالقرب من نقطة توقيفي توقفت في أقرب مكان يصلني بالكورنيش؛ فعلي السير مسافة لا بأس بها حتى أصل إلى غايتي. وبينما أسير ظللت أتخيل منظر البحر.. مرّ وقت طويل منذ آخر زيارة له.
هنا البحر الفسيح، ورائحة الرطوبة المعتادة. نافورة جدة في الأفق القريب، دائماً ما أراها كأنها حسناء تسدل شعرها للوراء. أترك نفسي عرضة للنسيم الرقيق، وأغمض عيني..
بدأت أشعر بالأمواج تتحرك من حولي أكثر فأكثر. أنصت لتلاطمها، وأحس بأن كل شيء معها يتحرك. تتكشف لي المزيد من الأمور، أشعة قادمة من أعلى، أشكال تظهر ثم تختفي، خرائط ومدن، رحلات منذ عصور متطاولة. إنني أسمع كلمات تتلى مع ارتداد الأمواج: وليل كموج البحر أرخى سدوله علي بأنواع الهموم ليبتلي..
أرى ليل امرؤ القيس، أحد شعراء المعلقات، ومن تلك الظلمة أرى نوراً ينبثق، تصبح رؤيته أكثر وضوحاً، رحلات الإنسان الأولى بالبحر، أسفاره وخطوط تجارته، ألمح أساطيل سفن محملة بالتوابل تعبر البحر الأحمر وتوشك أن تتوقف عند ميناء جدة.. يختفي كل هذا ثم أجد نفسي تجاه صيادي حيتان، تذكرت الكابتن آخاب وسعيه ليصطاد ذلك الحوت الأبيض. ثم انتقل نحو الشرق الأقصى، حيث صيادي التونة على شواطئ اليابان فتأسرني لوحة الموجة الكبيرة في كاناغاوا. اختفى صوت الأمواج، لا أسمع شيئاً الآن والسواد يغطي كل شيء. توجد حركة خفيفة لكنني لا أقدر على رؤية مصدرها، حتى يداي لا أستطيع رؤيتهما، هناك شيء واحد أعرفه: أن الظلمة هنا حالكة. أتحسس بيدي التي لا أراها لعلني أعرف على ما حولي، توجد كائنات تلامسني وسرعان ما تذهب، لا تبدو كأبي مخلوقات أعرفها، لكنها تسبح هذا بالتأكد ما شعرت به. أستمر بالتحسس لا أعلم ما قد يعترضني، ربما تقع يدي على مخلوق ما فيأكلها، لكنني تغلبت على الخوف وتابعت. أشعر بخشب منكسر، ويبدو أنه مهترئ ورطب جداً، توجد معادن صدئة أيضاً، لعلها سفينة تحطمت منذ زمن طويل، وشيء آخر عالق على الركام يبدو ملمسه مألوفاً، لم تتغير حالته أبداً، نعم بلاستيك..
ينقشع الظلام فجأة كأن أُمّي أزاحت الستارة عن النافذة لتوقظني، فيعمي الضوء عيناها المليئتان بالنوم، لكنني هذه المرة لست على سريري، ولست في أولى ساعات الصباح، إنما البحر الأحمر أمامي والشمس الذاهبة للغروب تلمح وجهي.

الفصل الثالث

أستيقظ من النوم ومن ذلك السبات المظلم على ما اعتدت عليه: غرفتي وجدرانها الخضراء، كتبي المكومة وملابسي المبعثرة في كل مكان.. تلك الفوضى تدل على أن أمي تركت اهتمامها بترتيب غرفتي، ويبدو أن المسؤولية الآن على عاتقي، ورغم عدم ذكرها للأمر إلا أنني استنبطته من لومها الدائم فيما يخص نظافة الغرفة. عندما أتذكر ما يرويهِ لي فارس عن تعامل أمه معه تبدو أمي جدًّا متساهلة بالمقارنة بها، فهي لا تكتفي بتوبيخه بطريقة عفوية كما تفعل أمي، إنما تفرض عليه القيام بواجباته التي تحددها هي. هذا دومًا ما يترك لي متسعًا لأحظى بمساحتي الخاصة وقواعدي الخاصة المختلفة -وليس بالضرورة المتعارضة- مع التي تقررها والدتي. كنت قد أرسلت إلى فارس قبل أن أخلد للنوم رسالة "واتس أب" تفيد بأن علينا الالتقاء في صباح الغد الباكر قبل بداية الدوام المدرسي، عادة ما نفعل ذلك ونذهب لأكل الفطور في المقصف والحديث سوية. لدي الكثير حتى أحكيه، والحقيقة لا أعرف بعد كيف سأسرد كل ما حدث بالأمس، هناك الكثير من الأشياء التي يصعب شرحها. لا أعلم كيف سيبدو ما أقوله منطقيًا، كل ما حدث كان جنونيًا حتى أنني لست متأكدًا من وقوعه، لكن منظر البحر ساعتها، ركام السفن، الظلمة، الشعر، اللوحة الفنية.. كل ذلك يجعلني أترجع عن شكوكي في صحة ما وقع، ما حدث كان حقيقيًا، لقد رأيت أشياء لم تسبق لي رؤيتها والعجيب أنني تعرفت عليها فورًا مثل قافلات سفن التجارة وقطعة الرسام الياباني. لكن في حديثي مع فارس أرجح أنني سأبدأ مع شعر امرؤ القيس، أعلم أن فارس محب للشعر؛ لذلك سيبدو ما أقوله له مثيرًا للاهتمام بلا ريب، مع الأخذ بالاعتبار أنه يعلم مدى جهلي بالشعر. تقابلنا كعادتنا في المقصف، كل منا بوجهه المتورم، لكن حماسي طغى على تلك الملامح الناعسة.

قلت بحيوية: صباح الخير!

أجابني بغم متئائب واضعًا يده عليه: صباح النور..

- ماذا تود أن نفطر؟ سألته.
- لا أعلم، أي شيء سيفي بالغرض.
- حسنًا، اليوم سأتكفل بفطورك لا تقلق من هذه الناحية، اذهب واجلس سأجلبه لك.

ابتسم فارس علامة على قبوله عرضي السخي.

بعد تناولنا للفطور وبعض الأحاديث المعتادة قررت أن أبدأ برواية ما حصل لي. قلت له: أتذكر أنني كنت ذاهبًا للبحر بالأمس؟

قال: نعم، كيف كانت نزهتك؟

أجبت: لم تكن نزهة، بل قل رحلة.

قال متعجبًا: حقًا، ولماذا؟!!

قلت: لقد واجهت الكثير من الأشياء، شعرت بأني خضت تجربة طويلة رغم أنني عدت للمنزل مع صلاة المغرب.

ظل صامتًا منتظرًا مني أن أكمل..

تابعت: لقد حدثت لي أمور لن تصدقها!

اقترب مني قليلًا منتبهًا لما أقول وعلامات الفضول على وجهه.

قلت: لكن إذا أردت أن تعلم ما حدث عليك أن تعدني بالأقوال تقاطعني أو تسخر مما أقول.

قال بطريقة سريعة هازًا رأسه: حسنًا.

لقد رأيت امرؤ القيس!

لا أعلم كيف صغتها هكذا لكن ما أن تفوهت بها حتى طفق فارس ضاحكًا.

قلت له: لقد وعدتني بالأقوال تسخر!

قال: هل تعلم من هو امرؤ القيس أو لآ؟

قلت له: نعم، شاعر جاهلي ومن أشهر شعراء المعلقات.
قال: جيد، لكن ذلك لا يعني أنك رأيته فهو شخصية قديمة جدًا. ربما كان موجودًا قبل أكثر من ١٥٠٠ عام أي قبل بداية الإسلام!
قلت: لكني سمعت شعره ولم يكن هناك أحد بجانبني.
قال: وكيف حدث ذلك؟
أجبت: لا أعلم تحديدًا، لكنني وقفت أمام البحر متأملًا وعندما أغمضت عيني حدث كل ذلك.
رد علي ساخرًا: أيعني أن كل ذلك كان عبارة عن خيالات؟
قلت: لا لم تكن خيالات. إني متأكد أنني سمعت ذلك البيت للمرة الأولى لكن مع ذلك تعرفت على قائله!
قال لي فارس بلامح جادة: أتعلم أنني سمعت من والدي أن هناك من يقول أن شعر امرئ القيس ليس له؟
استغربت كلامه ولم أفهمه فسألته: ماذا تعني؟
قال: أعني أن هناك شخصًا آخر قام بتأليف تلك الأبيات الشعرية ونسبها لامرئ القيس.
أجبت: لا أفهم، ولماذا قد يفعل ذلك؟
قال: لا أعلم أيضًا، لكن تبقى كل تلك أقاويل لا يوجد ما يؤكد صحتها.. هذا ما قاله أبي
قلت له: حسنا، لكني رأيت أشياء أخرى..
وأنا أقول ذلك قاطعني الجرس المدرسي معلنًا عن بداية الطابور فاضطررنا أن نكمل حديثنا ونحن في طريقنا للساحة الخارجية..
قال لي فارس: ما رأيك أن نكمل فيما بعد؟
قلت له بخيبة كون الحديث لم ينح المنحى الذي أردته: حسنا، لكن سأحكي لك باقي ما حدث في الفسحة.

الفصل الرابع

في الفسحة تلاقينا من جديد، معنا رفيق لنا لا يتركنا نكمل حديثًا دون أن يقاطعنا بكلمة أو حركة مزعجة، يدور كالذباب ويتحدث مثل الراديو، اسمه عبدالعزيز.
قلت لفارس: هل تعلم كيف كانت التجارة تجري قديمًا؟
قال: لا.
فتابعت: كانت هناك طرق عديدة من أقصى الشرق مرورًا بالجزيرة العربية حتى الغرب.
طريق الحرير، وطريق البخور، وطريق العنبر والعديد غيرها.. طرق بحرية وبرية كانت تشكل حلقة وصل بين حضارات مثل الصينيين والرومان.
قاطعني عبدالعزيز: لماذا يأكل الصينيون الخفافيش؟
تجاهلته بداية لكنه عاد يسألني من جديد: هل فعلاً يأكلون الحشرات؟
قلت له: ربما، لكن هذا لا يهمنا الآن.
أكملت كلامي: ولا تقبّع أهمية تلك الطرق في صفحات التاريخ فقط، بل أن بعض الدول عادت تعزز من هذه الخطوط القديمة حديثًا وأنشأت سككًا حديدية على امتدادها لنقل صناعاتها.
سألني فارس: كيف علمت كل هذا؟
قلت له: أنا مثلك أتساءل.. لا أتذكر إذا ما كنت قد قرأت هذا الكلام، لكن أظن أن لحدث الأمس علاقة بالأمر.
لقد رأيت قافلة سفن قديمة حينها على ميناء جدة، أرحج أنها كانت قادمة من الصين.
رد علي فارس عاقدًا حاجبيه وعلى وجهه علامات الاستغراب: لكن هذا يبدو مستحيلًا! أن تنتقل بالزمن وترى ما رأيت وكأنك في فلم خيال علمي..
وقبل أن يكمل فارس كلامه ولأن دم عبدالعزيز يغلي مثل إبريق على الجمر قام فصفعني على ظهري ثم أسرع يجري. أغاظني ما فعله، لكنني قررت ألا ألحق به فهذا ما يريد.
طفق فارس ضاحكًا على الموقف وعلى وجهي الذي امتلأ بغیظ مكتوم.

الفصل الخامس

كنت قد صرفت جل مصروفي عندما دعوت فارس للإفطار صباح اليوم، ولذلك لن أستطيع الذهاب في رحلتي المعتادة. عوضًا عن ذلك سأذهب للعب كرة القدم في حديقة أمام منزل فارس والتي تبعد عن منزلي خمس دقائق. عندما وصلت كانت رائحة العشب الندية، وصوت المراجيح في منتصف الحديقة يملآن المكان. على يمين الحديقة مساحة للعب الكريكت، الرياضة التي تشبه البيسبول ولا يلعبها سوى بعض الفتية الباكستانيين في الحي. وفي الجهة الأخرى ملعب كرة القدم. تم تقسيمنا لثلاثة فرق، أنا وفارس وقعنا في فريقين مختلفين وشاءت القرعة أن ألعب قبله. انتهى زمن المباراة المحدد، فاضطررنا إلى لعب ركلات الجزاء والتي انتصر فريق الخصم فيها. دخل فريق فارس الذي كان منتظرًا وجلسنا مكانه نراقب. ما أن بدأوا حتى استلم فارس الكرة، يلعب بها كأنه يداعب شمس العصر البرتقالية، لقد كان ماهرًا أعترف بذلك، لكن لم يمض وقت طويل من لعبهم حتى سقطت الكرة في أحد بيوت الجيران فهبّ أحدهم مسرعًا وكأنه يخشى على البيت الذي سقطت فيه الكرة من الاحتراق.

انتهينا من اللعب نكاد نغرق في عرقنا، ثم انتعلنا أحذيتنا المطاطية بعد أن نزعنا الأحذية الرياضية والتي نعود إلى بيوتنا حاملينها بأيدينا. عدت مرهفًا، ولم أجد أمي في البيت..
تمددت على سريري، وبينما أتأمل رفوف المكتبة لاح لي كتاب يقبع هناك منذ زمن طويل، يتحدث عن نظرية النسبية لأينشتاين. لطالما سمعت عنها لكن لم أجد فرصة لأعلم عنها المزيد. وبينما أقرأ الكتاب نمت وعندما أفقت علمت أين ستكون وجهتي القادمة.

الفصل السادس

انتظرت نهاية الدوام الدراسي بفارغ الصبر، ودعت فارس، ثم صعدت إلى البيت. استقبلتني أمي، تغدينا سوية ثم فأتحت أبي بأنها ستجلب لي معلمًا خصوصيًا لتحسن من أدائي المدرسي. يا للمصيبة! الآن علمت أين كانت بالأمس؛ لا بد أنها كانت عند إحدى صديقاتها والتي اقترحت عليها هذه الفكرة الكارثية؛ لأن قدوم معلم لتدريسي يعني أنني لن أستطيع الذهاب خارجًا وسأمكث طيلة الوقت معه.
رفضت ذلك وقلت لأمي أنني لا أريده لكنها أجابتنني بصرامة لم اعتدها بعد أن أوافق أبي على الفكرة: "انتهى الموضوع".

لا أعلم كيف سأتعامل مع هذه المشكلة الآن.. كل ما أعلمه أن لدي اليوم حتى أستغله، ولن أضيع أي دقيقة..
جهزت جميع أغراضي، وحملت حقيبتني هذه المرة ووضعت فيها كتابًا وقبينة ماء. توجهت مباشرة إلى نهاية الشارع لأوقف باصًا، صعدت سريعًا، مررت بطاقتي على الجهاز "لا يوجد رصيد كاف".. ارتبكت حينها، لكني أعطيت سائق الباص ثلاثة ريالات ونصف كانت قد تجعدت أوراقها حتى أصبحت مثل مروحة يدوية من تلك التي يستعملها الصينيون.

جلست على أحد المقاعد الخلفية، أخرجت كتابي من الشنطة، وقرأته موزعًا النظر بين الكتاب والشارع. ما أن اقتربنا حتى وضعت الكتاب بالشنطة سريعًا ثم ناديت بقائد الحافلة كي ينزلي، لكن يبدو أنه لم يستمع إلي.. رفعت صوتي وحينها التفت وصوب نظره نحوي قائلاً بلهجة عربية ركيكة: "مافي ينزل هنا".
صحت مستغربًا: ماذا! فرد علي مصويًا نظره نحو الشارع: قدام قدام.

المكان الذي سأذهب إليه هذه المرة مجسم كبير يقع على طريق الملك فهد، يتكون من ثلاث كرات حديدية مختلفة أحجامها وكأنها سباحة ضمن مدار من الألمنيوم، ويُدعى بـ "دوار الفلك".
توقف بي الباص أخيرًا بعد أن سار مسافة ستكلفني عناء المشي ربما لثمان أو عشرة دقائق، رغم لو أنه توقف حيث أخبرته لوصلت إلى وجهتي مباشرة!

بعد أن نزلت وتابعت السير علمت سبب عدم توقفه، إذ أن الشارع مليء بالسيارات المسرعة؛ ولا يوجد متسع يستطيع أن يركن فيه الحافلة لأنزل.

المجسم الكبير أمامي، أتأمل أحجام الكرات الثلاث كأنهن يمثلن تباين أحجام الكواكب في الفضاء، يخنفي صوت السيارات في الشارع تدريجيًا، وما أن أغمض عيني حتى أرتفع عاليًا وكأنني على متن صاروخ. الهدوء هنا يذكرني بما شعرت به عندما كنت في أعماق البحر، إلا أنني أستطيع رؤية الكثير من الأجسام المنيرة، كوكب الأرض يبدو مذهلاً من هنا، لكن تذكرت من درس العلوم أن الكواكب معتمة، لا بد أن ضوء الشمس ينعكس على كوكبنا فأراه.

القمر قريب مني، لكن بالمقارنة أجد مظهر كوكبنا خلابًا بطريقة فريدة، لا أستغرب لماذا قد يود أحدهم أن يسافر إلى خارجه.

أنتقل مباشرة وكأنني أطير في الفراغ حول المجموعة الشمسية. أرى الكواكب الثمانية تدور حول الشمس، لكن من الخارج هناك مثل الغبار، مجموعة صخور متفرقة تدعى بحزام كايبر. أرى كذلك حزامًا مشابهًا أقرب لمجموعتنا الشمسية من الداخل تدور فيه مجموعة من الكويكبات الصغيرة. يقع بالخارج من هذا الحزام كوكب ضخم يفوق بمفرده حجم جميع كواكب المجموعة الشمسية السبعة الأخرى مجتمعة! كان ذلك كوكب المشتري.. وما أن وصلت إليه حتى تفاجأت بالغازات التي تغطي سطحه، يبدو ككتلة كبيرة من الغاز مشكّلة كوكبًا. ألاحظ عاصفة كبيرة بلون أحمر تغطيه من الخارج، أغوص في الأسفل فأجد مسطحات مائية، والمزيد من العواصف والغيوم، إنها تمطر ماسًا هنا! لا يشبه سطح هذا الكوكب سطح الأرض بأي شكل من الأشكال. أرغمتني الرياح القوية إلى الابتعاد عنه وعن غلافه الجوي الهائج، وبينما أبتعد هاربًا ذهلت من عدد الأقمار الذي يدور حوله.

اتجهت نحو الشمس، كوكب الأرض يبدو كالكرة التي نلعب بها بالنسبة لها، حينها بدا لي كوكب آخر، أصغر من المشتري ومقارب لحجم الأرض، ذو جمال أخاذ.. الزهرة ذلك الكوكب الذي يبدو كحجر كريم مشتل والذي عندما اقتربت منه شعرت بالعرق يسيل من وجنتي. جماله الخارجي لا يعكس حرارة سطحه الذي يبدو أن المحيطات تبخرت وحلت أماكنها براكين وفوهات مليئة بالحمم بسبب سخونته. أتابع تجولي العشوائي، لكن في الحقيقة ما زال الفضاء واسعًا، أعتقد أنه ينبغي لي أن أستكشف مجرتنا بشكل أكبر؛ فهناك توجد مليارات من النجوم التي تشبه الشمس وتفوقها حجمًا، فضلًا عن مجموعات الكواكب الأخرى. أتجول في درب التبانة، تلك المجرة الهائلة والتي تبدو شمسنًا الضخمة فيها مثل حبة رمل في صحرائها، أجد كواكب وحطامات كالعادة، ومن ثم مظهر هائل بدأ يلوح لي: الكواكب الضخمة والنجوم الأضخم تنسحب وتختفي، كل شيء يتم ابتلاعه هنا حتى الضوء! لا بد أنني قد واجهت ثقبًا أسود ويجدر بي الابتعاد.. أذهب بعيدًا، بعيدًا عن درب التبانة. بعدما غادرت مجرتنا فاجأني عدد المجرات الأخرى. يبدو أن هذا العالم لا ينتهي. شعرت ساعته بخوف عجيب كون أن ما نشغله في هذا الكون ضئيل جدًا مقارنة بما يتواجد فيه من: مليارات النجوم والتي يدور حولها مليارات من الكواكب الأخرى، ممرات غبارية وأعداد لا متناهية من حطام الكواكب. ومن نقطة تبعد ٨٠ مليون سنة ضوئية عن مجموعتنا الشمسية، راقبت الأرض، أردت أن أرى ماذا يفعل الناس في الوقت الذي أتجول فيه الفضاء، فعوضًا عن أرى شوارع مزدحمة بالسيارات، أبي عائدًا من عمله، أو الفتية يلعبون كرة القدم في الحي، كانت دهشتي:

لم يكن أيًا مما اعتدته ظاهريًا، لا شوارع، لا سيارات، لا مبان، ولا طائرات. الأرض عبارة عن: غابات مظلمة لم يتعدَّ عليها ضوء المدن، محيطات لم تُلَقَّ فيها نفايات أو مشتقات نפט، ولا زالت اليابسة مأهولة بمخلوقاتها الأصلية. تابعت النظر مدققًا ويا لمفاجأتي.. ديناصورات! لا أعلم كيف رجع بي الزمن لهذه الحقبة، لكن كيف هذا وأنا في الفضاء؟ حاولت فهم الموقف لكن لم أستطع، ربما إذا عدت للأرض سأجد جوابي، لكن كيف ذلك! على أية حال، ما رأيته في هذا الكون الفسيح دعاني لاستنتاج أنه لا يمكننا زيارة كل ما فيه؛ فعلى حدوده كل شيء يتمدد باستمرار؛ أي أن ذلك الكون المترامي الأطراف لا زال يتوسع أكثر فأكثر!

خلال أيام الأسبوع. عدت وجلست على السرير، وبي شعور مشابه للأمس وأنا على الرصيف. ماذا لو لم تتجاهلني الباصات؟ ماذا لو تكلفت الأمانة بوضع محطات لها حتى أستطيع انتظارها هناك؟ أو ماذا لو لم أنس مواعي مع المعلم؟ ربما ما كان لأي من هذا أن يحدث.. وأنا كذلك نمت، وكانت غفوة طويلة مليئة بأحلام تفتقد للمعنى مثل الأيام التي تنتظرني.

الفصل التاسع

لا يوجد شيء يُذكر لأحكيه، الأيام الفائتة كانت رمادية، على الأقل بالنسبة لي. كل ما كان هناك بعض الزيارات العائلية، المملة، والأحاديث مع فارس في المدرسة والتي يشاركنا فيها عبدالعزيز أحياناً. عبدالعزيز الذي حسبته شاباً مغفلاً لا يفقه شيئاً أثار فضولي حوله عندما كنا أنا وهو وفارس نتحدث في أحد الحصص التي تغيب فيها الأستاذ. حديثنا الذي أتى بعد أيام من ذلك المساء التي نزلت علي العقوبات فيه كالمطر، كالمطر المزعج حقاً، بسببه. حيث أن المطر نادراً ما يهطل في جدة لكن إن حدث وشاءت السحب أن تبكي على هذه المدينة الجافة فستغرقها وتغدو فرحة السكان بالمطر مأساة حزينة. لكن لم يحدث هذا منذ زمن طويل لحسن الحظ، أما عقوبة أهلي فقد حدثت، هي كمطر جدة نادراً ما يقع، لكن إن وقع فسيكون وقعه سيئاً. لم أندم لحظة على التجربة التي خضتها في ذلك اليوم؛ فقد واجهت شعوراً جديداً، تعرفت على المجهول وجعلني أستوعب مقدار جهلي، وهو كثير بالمناسبة. الأحاديث التي تلتها كانت مثرية، لم أعلم أن أصدقائي لديهم هذا القدر من الاطلاع، فعلى الرغم من أن المعلومات كانت تأتي إلي بسهولة خلال تنقلي العجيب في تلك اللحظات عند زيارتي للمواقع، إلا أن بعض الأشياء بقيت مجهولة ولم أتعرف عليها.

بدأت أيضاً بكتابة بعض القصص القصيرة والتي أعرضها على فيصل وهشام أبناء خالتي اللذين يصغراني قليلاً بالسن ويقرأها بصوت مرتفع مما يجعلنا نضحك سوية وتصبح القصص التي أكتبها نكتاً هزلية. أزورهم مع أمي في بعض الأوقات، نقضي وقتنا بلعب البلاستيشن أو البلوت، في الواقع لا أحد منا يعلم كيف يلعب البلوت لكن أخوي فيصل يمضيان وقتها بتعليمنا لكي نكمل العدد ويصبح من الممكن اللعب. رغم تعليمهم المتواصل إلا أننا لم نجد تلك اللعبة سهلة للفهم، كل ما أستوعبه هو أن ترتيب الأوراق يختلف حسب طريقة اللعب ففي "الحكم" تكون بطاقة الولد هي الأقوى وفي "المن" تضعف قيمة تلك البطاقة حتى تعود أضعف من بطاقة البنت. التفاوت الذي يذكرني بما يحدث في المجتمع، والاختلافات بين الجنسين. لا أكون ممتعاً عندما أذهب بعيداً بمثل هذه الاستنتاجات فاللعبة ليست إلا لعبة هذا ما يقولونه عندما أذكر لهم مثل تلك الملاحظات. لا يهمني ذلك، لأنني أعتقد أنه بوسعي قول أي شيء أريده عندما أكون مع رفقتي في المدرسة فهم أكثر تفهماً لي. كنت أحدث فارس في وقت الحصة الفارغ عن دوار الفلك والمغامرات التي وقعت لي في الفضاء. فارس الذي يبدو وكأنه اعتاد على قصصي الخيالية يستمع بإنصات وتفاعل كبيرين. لا أعلم حقيقة إن كان ما أقوله يبدو معقولاً كفاية إلا أنني أعتقد بأنه يعلم أنني لست معتاداً على الكذب فربما هذا ما يجعل من حديثي مقبولاً بالنسبة إليه إلى حد ما. كان ينظر إلي بعينيه الحالمتين الممتلأتين بالسواد ولمعة خفيفة تكسوهما، وبينما أنا في منتصف سرديتي قاطعني فجأة بصوت رزين:

- علي، هل كل تلك القصص من صنع خيالك؟

عندما سألني بتلك الطريقة أصابنتي قشعريرة، لم أعلم بماذا أجيبه، لم أرد أن أبدو كاذباً بتبريري له أو محاولة جعل الأمر منطقياً، فأجبت:

- نعم، لدي خيال واسع وسواء صدقتني أو لا فلا يهم، فالخيال يظل خيالاً أليس كذلك؟

تغيرت نظرتي وكأنه شعر بأنه أساء إلي بسؤاله لكنه عاد وتماسك وقال:

- أنا أصدقك، لكن ما تقول أنه وقع لا يمكن أن يقع. هذا هو الأمر ببساطة.

أنا أيضاً لا زال يؤرقني إن كان ما يحدث معي حقيقياً أم من نسج الخيال، فهو لغز محير، ولا زال كذلك. لكن لم يتبق لي إلا الإيمان بحدوثه فهي الطريقة الوحيدة للتعامل مع بعض الأمور التي لا يمكن القطع بها. دار هذا الحديث في نفسي قبل أن أجيب فارس:

- المنطق وحده لا يكفي حتى نقيم الأمور، وربما وقتها لن نؤمن بمعجزات الأنبياء لأنها غير منطقية بالنسبة لنا.
- لكنك لست نبياً.
- ربما توجد معجزات خاصة لكل منا.
- وبينما نحن هكذا جاء عبدالعزيز وقال لنا أنه كان يستمع لحديثنا وقد أثار اهتمامه وسألنا -على غير العادة- إن كان يستطيع مشاركتنا النقاش. دعوانه ليجلس ثم قال:
- لا أعلم إن كان علياً محقاً في كل ما قال، لكني متأكد أن كثيراً من كلامه صحيح.
- ثم تابع:
- لقد قلت أن المشتري مليء بالغازات وهذا صحيح بالطبع لقد قرأت هذا في أحد المجلات العلمية التي يحتفظ بها والدي في البيت، أنا في الواقع مهووس بعلم الفلك.
- قال فارس:
- ربما قرأ علي أحد هذه المجلات.
- أجبت بسخرية:
- أنا لا أقرأ المجلات.
- أكمل عبدالعزيز كلامه غير عابئ بمشاركتنا أنا وفارس الجانبية:
- لكن أكثر ما استدعى اهتمامي هو ما قلته بأنك رأيت الأرض على حالتها القديمة، قبل عدة ملايين سنة على الأرجح.
- أجبت:
- نعم.
- إنني أعلم تفسير هذا اللغز.
- حينها اقتربت منه وسألته:
- حقاً؟
- قال:
- نعم، بمنتهى البساطة.
- أجبت:
- إذًا كيف؟
- شرح لي كلاماً كثيراً مليئاً بالنظريات والمعادلات لم أفهم منه شيئاً، كان مغرقاً في التفاصيل لحد أربكنا أنا وفارس معاً. دعوانه للتوقف قليلاً وتبسيط ما يقول حتى نفهمه.
- أنصحكما بقراءة نظرية أينشتاين، يوجد لدي كتاب ربما تستطيعان فهم النظرية إن قرأتماه.
- لحظة، أظن أن لدي كتاباً مشابهاً.
- حينها أخرجت كتابي الذي كنت أحمله في شنطتي ولم أستطع إكمال قراءته.
- قال لي عبدالعزيز:
- نعم هذا هو.
- وقتها صدمت كيف أنني لم أقرأ كتاباً كان لدي طول هذه المدة، والذي لو فعلت ذلك لكشف لي أسئلة ظلت تلح علي وقتاً طويلاً.
- وقتها قال فارس:
- لست مهتماً كثيراً بقراءة الكتاب، لكن هل يمكنك يا عبدالعزيز أن تعيد شرحك مرة أخرى وبطريقة أوضح هذه المرة.
- قال عبدالعزيز:
- لا بأس سأفعل.

الفصل العاشر

كنت متلهفًا لما سيقوله عبدالعزيز، لكن بعدما حكى لنا كيفية حدوث ذلك تحول شعوري بالدهشة إلى شعور بالندم على تفريطي في فهم هذه الأمور بمفردي. ما قاله كان مدهشًا، نوع من المعرفة استثنائي، نقلة كبيرة للمرء أن يعلم مثل هذه الأمور، أن يدرك كيف أصبحت الفيزياء تقربنا من مفاهيم لا نعلم عنها الكثير مثل: الخلود، التاريخ، العودة بالزمن، وأكثر. لا أستطيع أن أنقل ما قاله عبدالعزيز بكل موثوقية لأنه يتحدث بسرعة وينتقل من فكرة لأخرى وكان أحدهم يلاحقه، لكني سأحاول جاهدًا شرح ما فهمته. قال لي: أن الزمن نسبي، أي أنه قد يختلف في مكان عن آخر. حينها سألته:

- كيف يمكن للزمن أن يختلف؟

قال:

- أن الأمر يعتمد على الجاذبية فكلما زادت الجاذبية كلما أصبح الزمن بطيئًا.

في الحقيقة لم أستوعب تمامًا كلامه لكنني تركته يتابع:

- وكذلك عندما تسير بسرعة الضوء فإن الزمن لا يتباطئ فحسب، بل يتوقف!

أوقفت عبدالعزيز حينها وسألته:

- ماذا تعني بأنه يتوقف؟ هل توقف بي الزمن عندما كنت في الفضاء ولذلك رأيت الأرض على تلك الحالة؟

أجابني:

- لا أعلم إن كنت تسير بسرعة الضوء؛ فهذا مستحيل نظريًا لأنه يتطلب ألا تكون لك كتلة على الإطلاق، مما يعني أن على جسدي أن يتحلل حتى تصل سرعتك لسرعة الضوء.

ثم تابع كلامه:

- علي أية حال، توقف الزمن لا يعني أنك تستطيع العودة إلى الماضي.

فسألته:

- إذا ماذا حدث بالتحديد؟

قال:

- ببساطة أنت كنت في مجرة بعيدة أليس كذلك؟

قلت:

- نعم، أتذكر أنها تبعد ٨٠ مليون سنة ضوئية عن الأرض.

قال:

- السنة الضوئية تعني المسافة التي يقطعها الضوء خلال سنة كاملة. فما دامت سرعة الضوء ٣٠٠ ألف كيلومتر في الثانية، والتي هي سرعة فائقة جدًا، فخلال ٨٠ مليون سنة سيصل إلى المكان الذي كنت تراقب الأرض منه؛ مما يعني أن المسافة شاسعة جدًا. على الأرجح كانت سرعتك أسرع من الضوء في هذه الحالة.

أجبت ضاحكًا:

- ربما توجد أشياء تختلف عن الفيزياء.

تابع كلامه وقال:

- ما أعتقد أنه حدث معك كالتالي: ذهبت أنت إلى هذه المجرة، ولا أعلم تحديدًا كيف، ومن على تلك

المسافة البعيدة بدأت تراقب الأرض، الضوء الذي يصلك من الأرض يحتاج ٨٠ مليون سنة حتى

يأتي إليك، أي حتى تستطيع مشاهدة ما يحدث حاليًا على الأرض فعليك الانتظار ٨٠ سنة من

موقعك ذاك، أو أن ما يصلك سيكون قديمًا جدًا أي قبل ٨٠ مليون سنة مما يحدث في الأرض الآن.

لذلك حينها رأيت الديناصورات لأن الضوء القادم من الأرض هو ضوء قديم قطع مسافة طويلة حتى يصل إلى تلك المجرة.

حينها دهشت من كلامه، وبدأت أستوعبه قليلاً، ثم أكمل قائلاً:

- الأمر يحدث هنا أيضاً، فنحن نشاهد النجوم في السماء، وهي نجوم تقع بعيداً عنا مما يعني أن ما نشاهده قد حدث منذ وقت طويل عليها، وربما قد يكون بعضها قد مات ولا زلنا نشاهد الضوء القادم منه، لأن النجوم أيضاً تموت، يحدث ذلك بعد أن تنفجر مخلقة فوضى كبيرة خلفها. فارس ظل يستمع مطرقاً رأسه، ويبدو أنه أصابه الملل من كل تلك التفاصيل، لكننا حينها توقفنا، لأن معلماً آخر كان قد أتى، كان معلماً بديلاً وطلب منا أن نبقي هادئين بينما ذهب ليتصفح هاتفه، كان يشاهد مقاطع تيك توك والتي بدأ صوتها يخنفي في ضجيج الكلام الذي عاد تدريجياً في الفصل، حينها نظر إلينا بلا مبالاة وذهب.

الفصل الحادي عشر

بدأت لا أطيق جلوسي في المنزل، لا يوجد شيء أفعله، حتى أنني توقفت عن القراءة وأصبحت أقضي وقتي على الهاتف. الساعات الضائعة عليه تجعلني أشعر بأن ذلك الجهاز الذكي ينظر إلي وقد عرف من سيمائي أنني أصبح غيبياً كلما قضيت وقتاً أطول عليه. أرمي هاتفي جانباً وأتأفف: كيف يمكن للملل أن يكون سيئاً لهذا الحد؟ إذا ما سمعني أحد والداي أندب حظي فقد ينظر إلي بنظرات مستنكرة ويقول أنني لا أقدر النعمة التي أنا فيها، لا أعلم ما مدى نفع النعمة إذا بقيت جل وقتي أشعر بأنني عديم الفائدة. أستلقي على السرير وأنظر إلى السقف، أشعر بالاختناق، لا أستطيع أن أبقى ساعة أخرى في البيت، أريد الخروج.

الجو في الخارج يبدو جميلاً، أقل حرارة من العادة، ربما لو أخبرت والداي سيسمحان لي بالخروج من هذا السجن. لكن ما أن أستأذنهما حتى ألقى الجواب المعتاد:

لا. هذه الكلمة التي من حرفين تعانق فيها الألف اللام والتي ما أن تقال على مسمعي حتى أفر هارباً إلى غرفتي حانقاً من كل شيء في حين يتردد وقع هذه الكلمة القاسية في رأسي. لا، لا، لا، لا لا.. هذا كل ما أصبحت أسمع من والدي. إذا سألتهمما الذهاب إلى المتجر القريب: لا. إذا أردت أن أخرج مع أصدقائي: لا. إذا أردت أن أستنشق الهواء بالخارج: لا.

كل هذا ليس مبرراً، ألم تكن المدة التي قضيتها في البيت كالسجين كافية حتى الآن؟ لا أعلم ماذا أصاب أهلي حتى يعاقبونني بهذه الطريقة. حتى نظراتهم لي أصابها شيء من الاختلاف، لا أعلم تحديداً ماهو لكنني بدأت ألاحظه. علي اكتشاف السر وراء موقفهم تجاهي. ربما علموا أنني عوضاً عن لعب كرة القدم في الحي كنت أذهب بعيداً عن المنزل، لكن كيف عرفوا ذلك؟ على أية حال لا يهم أيًا من هذا لأنني أعلم ماذا سأفعل وأجعلهم يندمون على معاملتهم القاسية لي.

هل يفترض بالمرء أن يأخذ إذن والديه في كل شيء؟ لا أظن هذا. سأقوم بما يحلو لي ولن أتردد لحظة واحدة. جهزت حقيبة الظهر الصغيرة، وضعت كل أغراضي التي تلتزمي: قنينة ماء، كتاب، سماعات الرأس، وسأخذ بعض النقود احتياطاً. وضعت هاتفي على وضع الطيران وفي ساعة بعد العشاء، وعلى غفلة منهم، غادرت البيت على نية ألا أعود.

أسير بخطى سريعة متلفئاً حولي، كعادتي لا أعلم أين أذهب تحديداً، لكن هذه المرة يبدو الأمر محفوفاً بالمخاطر. سأتابع السير دون هواده، ولن أتوقف. السيارات تمر بجانبني مثل البرق، بعضها ببطء، وكلما مر أحدهم شعرت بالوحدة تحيط بي، وخيّل لي أنه ينظر من نافذة سيارته بتهكم، إلى الطفل الذي يسير في الشارع بمفرده. أصبح مرور السيارات معتاداً، مشيت مسافة كبيرة، لكن صوت المركبات الذي كان يشكّل قلقاً لي اختفى ما أن وضعت سماعاتي التي تعزلني عن كل شيء. اقتربت من صرح كبير، توجد بوابة، وفضولي دفعني لأرى ما وراءها. وما أن تقدمت قليلاً إلا وأجد سلاحاً مصوباً علي! لا أعلم ماذا أفعل، يصيح بي رجل أن أنزع حقيبتني، وأن أركع على الأرض.. ماذا يحدث! ارتبكت مكاني، تهتز ساقي وكنههما جذع نخلة يهزهما

أحدهم ليسقط التمر منها، لكن لم يسقط تمر بل سقطت حقيبتني. وقفت متجمداً بينما الرجل ببذلته العسكرية اقترب وأمسك بي ونزع السماعات وأخذ الحقيبة وسلّمها لزميله. اقتادني إلى غرفة صغيرة تملؤها البدلات العسكرية، والشارات على الأكتاف، ووجوه مليئة باللحي تنظر لي باستهجان وكأنني في غرفة تحقيق. أجلسني وسألني أحد تلك الوجوه: من أنت؟ من جاء بك؟ وكيف أتيت إلى هنا؟ وماذا يوجد في تلك الحقيبة؟ لم أستطع الإجابة على أي من تلك الأسئلة لأنني ظللت أرفج، ثم هدأني أحدهم، وهددني، إن لم أجيب فسيتم اعتقالني.

كان الموقف من تلك التي تعلم أنها ستحدث لأن والديك قد حذرك إن خالفت أوامرهما فلن تنتهي الأمور بخير. كل الذي امتلأ رأسي به في تلك الساعة والداي، كيف لو أنني امتثلت لكلامهما لما حدث ما حدث، ولما كنت في موقف كهذا أشعر فيه بعدم الأمان، البيت آمن جداً بقربهما، حتى لو كان مملاً جداً. تابع الرجل سؤالني، ثم عندما ينس من الإجابة تركني. حينها تقدّم آخر وبلطف كبير بدأ باستجوابي أيضاً، لكنني بدأت أجب، وبدأت أحدث، وانفكت تلك العقدة التي ربطت لساني تدريجياً. أخبرني بأنه مركز للقوات المسلحة أو الدفاع الجوي، لا أعلم تحديداً لكنه مكان حسّاس، وأن مافي شنتني قد يكون عبوة ناسفة، وأن السلاح الذي رفعه عليّ كان ينبغي له أن ينطلق لأنني كنت قد تعدّيت الخط المسموح فيه لأحد أن يتعداه. قلت لهم أنني كنت أتجول دون هدف، وأنني قدمت ماشياً، وأن مافي شنتني ليس إلا كتاباً وعلبة ماء. قاموا بالتأكد مما تحويه الشنطة، لكنهم رغماً عن ذلك شكّوا بكلامي، ونظر لي الرجل ثانية ثم تحدّث واستمرّ الاستجواب، شعرت به طويلاً، لكن مع نهايته بدأ يتكون جو ودّي، وكأنهما علموا مني أو من كتابي الذي يحوي مقدمة في الفلسفة: أن هذا ليس إلا فتى تائه. حينها ابتلعت ريقني، وبدأ صدري ينشرح وابتسمت قليلاً، حتى قال أحدهم أن عليهم الاتصال بالوالدي ليأتي. كل القلق والارتباك الذي شعرت به عاد، وبصورة مفاجئة أخبرته ألا يهاتف والدي، وأن يتركني لأعود كما جئت. أصرّ في البداية، ثم لأن، وطفق يمازحني إن أتيت مرة أخرى فلن أرحل من هنا إلا في دورية شرطة.

رحلت سريعاً، وبمرح كبير اقتادتني رجلاي، اللتان كانتا ترجفان قبل قليل، إلى الشارع الرئيسي والنشوة تملؤني بأنني تخلصت من هذا الموقف الرهيب. شعرت بهمّ كبير انزاح ثقله من على كاهلي، وأنني غدت، بصورة مفاجئة، من شخص أسير إلى آخر حر قادر على تحقيق أي شيء. لاح في الأفق باص، وأوقفته وركبت سريعاً. وبينما أنا مطرق التفكير في ما إذا كان يتوجب عليّ العودة إلى البيت أو متابعة الرحلة التي خاطرت من أجلها قررت أن أوصل.

الفصل الثاني عشر

جميع الباصات العمومية تتوجه إلى وسط المدينة، المدينة التاريخية، أو ما ندعوه بالبلد. لا يوجد مكان أدفاً من البيت لأتوجه إليه أكثر من هذا المكان. الأزقة الممتلئة بالناس والحركة الدائبة التي تجعل منها شرايين تبعث الحياة في باقي المدينة، محلات البخور والعسل، وكل قد ما ترغب به الجدّات هناك. في الواقع توجد أشياء كثيرة أخرى لكنني لا زلت أتذكر جدتي التي اعتادت أن تأخذني لتبتاع بعض البهارات والتمور على خلاف أمي التي لا تذهب سوى إلى المتاجر الكبيرة أو المولات. أخذت جولة سريعة ثم جلست. تستطيع الجلوس في أي مكان هنا على عكس الشوارع حيث جلوسك يبدو مريباً وغير مريحاً البتة. وبينما أنا في ساعة راحتي تلك أغمضت عينيّ وتبدّى لي شيئاً معتاداً، مخالف للعادة، لكنني كنت قد اعتدته.

رحلة أخرى أرى فيها الأماكن وقد تغيّرت، الناس يلبسون ملابساً أخرى، والبيوت أكثر حيوية منها الآن. هي جدة أيضاً وكأنها قد صغرت كثيراً واستحالت تلك المدينة الكبيرة إلى حيّ صغير تحيط به الأسوار. كان الناس يخشون غارات الحملات البرتغالية، ولذلك كانت الأسوار. البيوت التي يتهافت الناس إليها بجدرانها البيضاء من الأحجار المرجانية تغطي نوافذها رواشين خشبية مطرزة بأشكال هندسية، ويبرز من سقفها مزاريب من

الخشب يتغير لونها حين تدفع الماء وقت هطول المطر. في الباحات أرى أطفالاً يلعبون، وفي المجالس يجتمع السادة بالتجار ليتم صلح الخلافات، وليعاد بناء أو اصر العائلات المتشاحنة. ومن على سطح بيت نصيف الذي أفق عليه الآن أرى الباخرات القادمة إلى الميناء مستمتعةً بنسيم الهواء وتصل لي أصوات البيع والشراء في السوق، صهيل الأحصنة، ونهيق الحمير المحملة بالأغراض. وبالقرب من شجرة النيم الكبيرة جمع من الناس يحملون عصيهم وإذا بحارة اليمن والمظلوم يخوضون عراكًا كعادتهم. يمر علي النهار والليل سريعًا، وفي الأريطة التي قد أعدت للعسكر أجد الأرامل والمشردين وبعض الدراويش نائمين.

أففق، أو أفتح عيني، وأعود للقرن الـ ٢١ حيث الحياة تجري كالمعتاد في الخارج قبل أن أغمضهما. البيوت القديمة لا زالت موجودة منذ قرنين غابرة أو أكثر لكنها أصبحت متاحف للزوار. أتجول فيها، أذهب لبيت باعشن، والبترجي، وأجد المراكيز في الخارج لكن لا أحد جالس عليها. تأخر الوقت، والنعاس يطرق جفني، أما طاقتي فلن تحملني كثيرًا. وبينما أنا كذلك مرّت عجوز تطلب مساعدتي في حمل أغراض لها، وحين اقتربنا من بيتها بجدرانها البيض الذي بعد أن فتحت عيني حتى علمت أنه بيت نصيف الذي أقفل أبوابه ولا أحد يدخله، قالت أنه بيتها، دخلنا معًا ونمت.

الفصل الثالث عشر

البيت العجيب، أو لنقل أنه قصر، يتوسطه درج كبير وفي أنحائه العديد من التحف والتماثيل والنقوش على السقف. وفي منتصف البيت أنية خزف على طاولة بيضاء. في الواقع لم أر تفاصيل البيت في تلك الليلة الظلماء لأنني كنت أسير خلف العجوز بينما هي تشعل الطريق بشمعة صغيرة. لكنني شاهدت كل شيء عندما أفقت اليوم التالي، أو هذا ما حسبته، حيث كانت هناك مخلوقات غريبة تجول المكان، القاطنون الغاضبون الذين عندما حكيت لهم قصصي وكيف قادنتي الطرق إلى هنا أصبحت ملامحهم منبسطة. دعوني جميعهم للجلوس، وبعد أن جلست قُدمت أشهى أنواع الطعام التي لا أعلم من أين جاءت لكن لا أظن أن السيدة العجوز والفتاة التي معها كانتا قادرتان على تحضير هذا الكم الهائل والمتنوع من الأطباق والمأكولات.

جلسنا بداية في ما يشبه الصمت توقيرًا للطعام الذي ملأ المائدة، لكن بعدها تحدّث أحدهم بصوت جهور قاطعًا الصمت المطبق:

- ما أشبهها بمائدة الحواريين!

استمرّ الصمت بعدها، ثم نظر لي رجل لديه لحية امتلأت بالبياض كأنها غمامة في يوم صحو وقال:

- وأنت أيها الفتى لقد حكيت لنا من مغامراتك الكثير، لكن لا يأخذك الغرور كثيرًا فجّل من تراهم أمامك هنا رحّالون، بل هم رحّالون عتيقون أكثر خبرة في الترحال منك.

حينها سألته:

- ماذا يفعل هذا الجمع الكبير من الناس، في منتصف جدة وفي بيت قديم منها؟

قال:

- ماذا يفعل الرحالون؟ هم يسافرون باستمرار.

ثم تابع:

- الجميع عابرو سبيل، يمكث البعض ليلة أو ليلتين ثم يمضي ليتابع أسفاره.

قلت له:

- لكن ما كان سبب غضبكم الكبير تجاهي؟

نظر إلى بعينين تحيط بهما هالة من التجاعيد تعكس تجارب كثيرة خطّتها الحياة عليهما:

- كما قلت لك جميع من هنا مسافر، فالبيت هذا مخصص ليحتضن أولئك المسافرين، وأي شخص ليس كذلك فعلى الأرجح لن يكون مرحبًا به، مثل جميع بيوت السفر في العالم. أما أنت بعد أن حكيت لنا قصصك، علمنا أنك لست طفلًا فحسب بل لديك ما يجمعك بنا.

بدأ الضجيج يملأ المكان والناس يتحدثون ويمرحون بشكل أكبر وحينها قام رجل منتفخ الجسد والوجنتين وعلى رأسه قبة قماشية بلون أسود وقال:

- أعزائي المسافرين، من حطت بهم رحالهم هنا، أنتم لستم على متن الخطوط السعودية بل في ضيافة بيت نصيف!

طفق بعدها الجمع ضاحكًا ثم قال:

- فليتحدث الجميع عن رحلاته وأهوال أسفاره، وطرقاته إن أمكن، وليرو على مسامعنا ما يثير مخيلاتنا من مواقف الأسفار.

- سأحدث أنا، سأحكي لكم ما لم يُسمع وربما لن يسمع بعد هذه المرة، لأن ما خضته بصفتي مغامرًا غير قابل للتكرار.

قال هذا شيخ قصير فقد رجله وحلت مكانها رجل خشبية، ثم ارتأت لي كساق اصطناعية. تابع كلامه:

- لقد اصطدت الحيتان، وقتلت كل مخلوق لديه زعفة تمخر المحيط يمكن أن يخطر في بالكم حتى أدهى القروش وأكثرها فتكًا، لكن مالم يكن متوقعًا يومًا، ويا للأسف الذي جنى علي كثيرًا، أن أواجه ذلك الوحش الكبير في وسط البحار والذي أنساني برويته كل ما قاسيته من أخطار كثيرة، الوحش الأبيض اللعين.

سكت الشيخ حينها ولم يتابع وكأنه جلس متأثرًا باسترجاعه لتلك الذكريات التعيسة التي وقعت له. حينها قام رجل آخر بعنفوان الشباب ولحيته السوداء التي لا يشوبها أي خيط أبيض:

- أيها الجمع، إن الخطر المحدق بنا نحن المغامرين كبير، وإنه على اتصاله لمدعاة للقلق، إلا أنه أكثر ما يستوجب علينا تجاوزه؛ فنحن لا نهنا إلا عندما نتفوق على الخوف بداخلنا في كل ساعة

وحين. وإني لأشعر بما أصاب أخي في الترحال من عارك الأمواج بيديه وسطر لنا أعلى قيم الشجاعة في مواجهته لذلك الخصم الغامض، أي المحيط، خلال كل تلك السنوات.

سكت قليلاً وتابع:

- أما أنا فقد لا يكون لدي ما لدى هذا الشيخ مما يرهب ويُفزع إلا أنني وبكل اعتداد أقول أنه لم يجوب الصحراء أحد مثلما فعلت، وأن كل تعاريج الصحاري وكتبانها لتسير في مخيلتي كما يسير النهر الجاري، فأتذكر كل جحر ضب مررت عليه، وكل كتيب رملي يرفد بجانبه من قضى عليه الأجل أن ينفق في العراء وسط جوع وعطش شديدين.

قُدّمت إلى المائدة المزيد من الأقداح والكؤوس وأصدرت أصوات الأطباق وقعا خاصًا كأنه ترقب لما سيحكي في الدقيقة القادمة. قام حينها رجل عاري الصدر أسمر البشرة:

- كل ما قلته حسن. حسنٌ جدًا.. لكن هل من أحد فيكم قد علم ما تخبئ المواطن الخضراء، المظلمة، والرطوبة في كثير من الأحيان، حيث كل أنواع المفترسات توجد هناك؟

حينها صاح به الرجل الذي يجلس بجانبني:

- لا، فلتخبرنا يا فتى.

قال:

- كل ما أرويه في الغاب من وحي تجربتي، فقد صنعت من ورق الشجر بيوتًا، وبالحجارة أشعلت النار الذي يقيني وهجه خطر الحيوانات في الليالي المظلمة. إن في الأدغال لأخطار كثيرة ففي كل صوب وزاوية تجد حيوانًا قد تكون لا تراه لكنه يتربص بك لينقض عليك.

حينها عم الهدوء وسألت الرجل بجانبني:

- ماذا عن هذه الحيوانات الغريبة التي تجوب المنزل، ما قصتها؟

قال:

- هي لذاك الرجل الذي يجلس في نهاية المائدة، والذي وصفها بأنها شبيهة بمائدة حواربي عيسى تلك التي أنزلها الله عليهم.

ثم تابع:

- لقد أحضرها خلال رحلاته من القطب الشمالي والجنوبي، والآن يعرضها للبيع لأولئك المسافرين الذين قد يأخذونها معهم للذكرى.

لكنني سألته:

- لكن أليس هذا مخالفاً لطبيعتها؟ أي أن تعيش في مواطن غير مواطنها الأصلية.

أجابني:

- بلى، لكنه رجل معتوه يدّعي أنه أنقذها من تلك الأماكن لأنها معرضة لخطر الاحتباس الحراري.

حينها طالعت وجه الرجل الذي لم يبدو كبيراً في السن رغم أن شعره قد اشتعل بالشيب بطريقة غريبة

وسألته:

- ماذا عنك، لم تخبرني عن رحلاتك؟

لكنه لم يجبني وأعطاني قلادة بلون بنفسجي.

حينها اختفى كل شيء، وفتحت عينيّ وإذا بالصباح قد طلع وصوت العصافير يملأ المكان وأنا مستلق تحت شجرة النيم أمام بيت نصيف. لكن وأنا كذلك رأيت نفس العجوز التي أدخلتني المنزل تمشي حاملة سلّة بيدها. حاولت لحاقها لكنها اختفت بين الناس. لاحظت أنني لم أفقد حقيبتي وأني كنت أضعها تحت رأسي وأنا نائم ففتحتها لأتفقد ما فيها، فوجدت تلك القلادة نفسها وأمسكت بها متعجباً، ثم ذهبت لأتفقد بيت نصيف فإذا هو كما اعتدته منذ زمن طويل لا يقطنه أحد ولا يُفتح بابه للزوّار المتطفلين أمثالي. حينها اكتشفت فداحة الخطأ الذي ارتكبته عندما هربت من البيت. ليس لي الآن إلا مواجهة عائلتي بما فعلت وأن أعود وأتحمل تبعات أخطائي. في طريقي ظللت أفكر في أي إجابات أقولها عندما أعود لكن لم يسعفني أيّاً منها لأنني عدت للبيت ووجدت أمي قلقة، وأبي بالخارج يبحث عنيّ وحين عاد احتضنني وسألني أين كنت، لم أملك جواباً سوى البكاء. لم يعاتبانني لكننا جلسنا حينها، وفي جو حميميّ، بدأ أبي يتحدث وأنا وأمّي نستمع، وأخي الصغير يلعب بجانبنا، لم نجلس هكذا منذ وقت طويل، وحينها اكتشفت شيئاً جوهرياً: أن لدى أبي قصصاً لم أسمعها من قبل.

خاتمة

لست متأكدًا من صحة كل ما حصل، ولا أظن أنني أستطيع أن أكون كذلك، لكني لا زلت أحتفظ بتلك القلادة والتي تفصح لي عن كل شيء أريده: أن أبقى رَحًالاً.

انتهت